الحركيّة الاجتماعية والتّطور السّياسي في ثلاثية نجيب محفوظ من الوعي الفعْلي إلى الوعي المُمكن

الأستاذ الدكتور: صالح مفقوده
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة–

ملخص:

موضوع هذا المقال هو وصف أعمال نجيب محفوظ القائمة على وصف الحياة الاجتماعية والسياسية بين الحربين العالميتين، وهذا من خلال عائلة السيد أحمد عبد الجـواد ، لتجسـيد صـراع الأجيال .

من هذا المنطلق ، تكون الروايـة قـد سجّلت التطور الحاصل في كل الميادين بطريقة سليمة وجماليّة.

Résumé:

L'objet de cet article est la description des œuvres de Nadjib Mahfoud qui se penchent sur la vie sociale et politique en Egypte entre les deux guerres mondiales et ce à travers les personnages de la famille de Sayed Ahmed Abdeljaoued tout en abordant le confit des générations.

De ce fait les romans ont bien marqué d'une façon si correcte et esthétique l'évolution dans tous les domaines.

يُدْرِج النّقاد ثُلاثية نجيب محفوظ (بين القصرين – قصر الشوق – السُكرية) ضمن المرحلة الثّالثة في تطوره الفكري والفني، والتي يطلق عليها بعضهم الواقعية التسجيلية [1]، وبوصول الكاتب نجيب محفوظ إلى هذه المرحلة الهرمية في الواقعية « يكون قد رسم آخر بعد في أبعاد واقعيته ممثلا في الشكل الفني الممتد كمًّا وكيفا »[2] فالثلاثية تشغل ما يزيد عن الألف صفحة ، وتُغطي فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية في مصر على الخصوص،من خلال تتبع عائلة السيد أحمد عبد الجواد وأبنائه ومعارفه، وأصهاره وأحفاده، وهي بذلك تصور ثلاثة أجيال متتالية ، جيل الآباء ، وجيل الأبناء ، وجيل الأحفاد ، وترصد التطور الاجتماعي والسياسي بدقة كبيرة ، ولا تكتفي الثلاثية بحركية المجتمع وتطوره ، بل تشير إلى ما يختمر في النفوس ، وهي بذلك ترسم دقائق الأمور عن كل شخصية في مشاعرها وعلاقاتها وطموحاتها أو انكساراتها، راسِما بذلك مختلف أشكال الوعي الفعلي سلبيا كان أم إيجابيا، وكذا الوعي المُضاد، ثم الوعي الممكن وصولا إلى مرحلة الانتماء الأيديولوجي. وعليه فإننا سنتطرق إلى شكلين من أشكال الوعي هما : الوعي الفعلي والوعي الممكن،والشخصيات التي تجسد كل شكل ومن ثمّ تشكل الأحزاب السياسية في مصر.

1 – الوعي الفعلي

ينتمي مصطلح الوعي الفعلي إلى البنيوية التكوينية ، وقد أطلقه "لوسيان قولدمان" ، و يعني به الوعي التجريبي العملي بالوضعية المعيشة[3]، وهو في الثلاثية يتمثل في شعور عامة المصريين بالظروف

السيئة والقاسية تحت نير الاستعمار البريطاني، الذي استغل قيام الحرب العالمية الأولى ليعلن الحماية على مصر ويفرض الأحكام العُرفية ، ويوجه الاقتصاد المصري لصالحه ، وينكل بالسكان ، هذا الوضع المزري يكاد يتفق على استنكاره كل المصريين من الطبقة المتوسطة والطبقة الفقيرة، ولكنهم يختلفون بعد ذلك في كيفية التعامل مع هذا الوضع ، ويمكن أن نقدم النماذج الآتية :

1 – 1 – السيد أحمد عبد الجواد وياسين والوعي الفِعْلي الإيجابي

أحمد عبد الجواد أو السيد أحمد عبد الجواد شخصية أساسية في الثلاثية فهو رب أسرة تتكون من الزوجة أمينة والابن الأكبر من زوجة مُطلقة "هنية" وفهمي وكمال والبنتين خديجة وعائشة ، والخادمة أم حنفي ، شخصية أحمد عبد الجواد تنتمي إلى أسرة برجوازية ،فهو يشتغل تاجرا في دكان ورثه عن والده بالنحاسين ، وهذه الشخصية متناقضة ، فهو في البيت شخص تقي ورع ، وشخص حازم يفرض أحكامه القاطعة ورأيه الصارم الذي لا يقبل المناقشة ، إنه الحاكم المطلق الجاد الحازم الحريص على أداء الصلاة بخشوع ، ولكنه في الخارج ذلك الشخص اللطيف البشوش الكريم الاجتماعي ، ثم هو بين خلانه وفي سهراته محدث ممتاز ونديم جيّد ، يهزه الطرب فيغني ويضرب الدف ويشرب الخمر ويتصل بالنساء ، يسهر باستمرار في الخارج ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، وقد خف عنه السُّكر، فيجد الزوجة في انتظاره للقيام بخدمته إلى أن ينام، وفي كل صباح ينهض ، فيتطهر بالماء البارد ويصلي بكل خشوع، ويتناول الفطور ثم يلبس ملابسه الأنيقة ويتعطر ويخرج إلى الدكان.

عندما يعود السيد من سهرته يتنازل عن بعض جبروته بفعل الخمر فيبدو لطيفا على غير عادته وتسمع منه الزوجة بعض الأخبار ، أو يحدثها عن بعض القضايا العامة ، ومن ذلك أنه اشتكى من غلاء الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب الحرب الطاحنة ، وهي الحرب العالمية الأولى التي تركت آثارها، «وجعل يحمِل على ارتفاع الأسعار، واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التي تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام »[4] وبذلك نعلم أن الرّواية تصور الحياة في مصر ابتداء من 1916، وما إنْ يذكر السيد أحمد عبد الجواد الحرب حتّى يَلْعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون في البلاد كالجراد ، ويعيثون في الأرض فساداً ؛ إذ أنّهم كثيرًا ما يسلبون المُواطنين أشياءهم ، ويُعرضونهم للإهانة، وبسبب هؤلاء لم يعد يسهر في الأزبكية اتقاء شر هؤلاء الجنود، وليس الجنود الاستراليون – فقط – هم الذين يعتدون على المواطن ، بل الجنود البريطانيون أيضا ،فلقد أعلنت بريطانيا منذ قيام الحرب العالمية الأولى حمايتها على مصر ، وفرضت الأحكام العُرفية، وألغت سيطرة الدولة العثمانية على مصر ، فقامت بخلع الخديوي عباس حلمي الثاني ، ونصبت مكانه السلطان حسين كامل مُعلِنة الحماية في 1914/12/18. ويشير أحمد عبد الجواد أنّ حُسين كمال تُوفي ، ورفض ابنه الأمير كمال الدّين حسين أنْ يتولى العرش في ظل حكم الأنجليز ، واعتبر السيد أحمد هذا كرما من الأمير ، ولما كانت الزوجة تسمع هذا الاسم لأول مرة قالت: رحم الله السلطان وأكرم الابن ،فاستطرد السيد قائلا:

"وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان أحمد فؤاد كما سيُدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم ، فانتقل في موكبه من قصر البُستان إلى سراي عابدين ...وسبحان من له الدّوام[5]".

تقدم لنا الرواية هذا الحدث التاريخي السياسي ، والمتمثل في تنصيب السلطان أحمد فؤاد في أكتوبر 1917 [6]، وهي فترة انطلاق الرواية ، ولكن طريقة عرض هذه الحادثة التاريخية السياسية تأتي عرضا ، في معرض حديث زوج إلى زوجته ، وفي هذه الفترة كان الناس يترقبون من المنتصر في الحرب ، وكان عامة المصريين مع عدو العدو ، ويبدو السيد أحمد عبد الجواد واعيا تمام الوعي بالأثر السلبي للاستعمار الانجليزي ، وقد ذاق هو شخصيا من ويلاته فقد عاش تجربة مأساوية تمثلت في حادثة بوابة الفتح .ففي إحدى الليالي خرج السيد أحمد عبد الجواد ثملا من بيت أم مريم متجها إلى بيته فاعترض جندي طريقه وساقه إلى بوابه الفتح إذ وجد هناك أناسا مثله وقد كُلّفوا بردم حفرة كبيرة حفرها السكان لمنع جنود الانجليز من التقدم ، فأكمل السيد الليل في هذا الشغل القاسي ، ومن بين من وجد هناك غنيم حميدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية وكان من الذين يحضرون أحيانا مجالس لهوه ففرح كل منهما بصاحبه ، وكانا حين يلتقيان يتبادلان بعض الجمل لا تخلو من السخرية ، فقد همس السيد مبتسما:أرجو أن يُعطونا أجرا مناسبا. وفي لقاء مرة أخرى قال حميدوغنيم للسيد:لعلّ زبيدة دعتْ عليك فقال لعلّها، وقال له حميدو:ألم يكن سد حفرتها أطيب من سد هذه الحفرة ؟ فرد السيد بل أشق.. [7]

وبالرغم من أنّ السيد أحمد عبد الجواد يكره الانجليز ، ويحب سعد زغلول فقد وقّع توْكيلا أتى به صديقه محمد رفعت ، وكان مبْتهِجا بهذا

التوقيع ، ولكن موقف السيد لا يتجاوز ذلك، فوطنيّته تتوقف عند هذه الحدود، إنّها تعني عنده التعاطف مع المجاهدين ، والدّعاء لهم،وبذل المال في سبيل ذلك ، لكن أن يشترك بعمل فعلي ،فهذا ما لا يقوم به ،وأن تمس الثورة أحدا من أبنائه، فهذا مالا يقبل به[8]يقول الكاتب عن السيد أحمد عبد الجواد ونظرته لأبنائه وحرصه على ألا يشتركوا في عمل سياسي: «كأنّهم جنْسٌ قام بذاته خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذي يرسم لهم الحدود ،لا الثورة ولا الزمن ولا الناس » [9] .

لقد حقق الأب مع ابنه فهمي واستنطقه ، وحذّره من مغبة الاشتراك مع المتظاهرين ، مُحاولا إقناعه بعدم الاشتراك في المظاهرات ، مُجبرا إياه على القسم بالمصحف الشريف بعدم الاشتراك في أي عمل من هذا النوع . وعندما مرّ به الشيخ متولي عبد الصمد طلب منه حجابا لفهمي ،حتى يُبعده عن الخطر المحدق به ،وما زال السيد عند رأيه حتى بعد أن استشهد الابن فهمي ، بل إنه اتخذ ذلك دليلا على صواب رأيه، فدعا ابنه كمال إلى ضرورة الانصياع إلى أوامره وتوجيهاته، ولكن رغبة الوالد في واد ورغبة أبنائه في واد ،فلم يسلك أحدهم مسلكا رسمه الوالد ، فلقد وقع التمرد على سلطة الأب والتحرر من القيود، فسلك ياسين مع أبنائه سلوكا مخالفا تماما لسلوك أبيه معه ، أعطاهم الحرية في المناقشة والمعارضة، وفهمي يعتبر أباه أجهل الناس بأصول التربية ، والدليل سلوك ياسين وسلوكه .يقول كمال بينه وبين نفسه عن الوالد المتجبر: «فما فعلتَ إلاّ أن آذيتنا كثيرًا،وعذبتنا كثيرًا بجهل لا يشفع لك فيه حُسن نيتك...لم نعرفك صديقا كما عرفك الغرباء،ولكن عرفناك حاكما مستبدًا شرِسًا طاغية،لذا سأكره الجهل أكثر من أيّ شيء في الحياة،فهو المُفسِد لكل شيء، حتى الأبوة المقدسة، خير منك

أب له نصف جهلك ونصف حبك لأبنائك،وإني أعاهد نفسي– إذا صرت يوما أبا–أن أكون لأبنائي الصديق قبل أن أكون المُربي» (10).

ويشترك الابن ياسين مع أبيه في هذا الموقف من الثورة فهو ليس ضدّها ولكنه لا يقدم جهدًا يُذكر ،فما يهمه هو نزواته ،وإشباع رغباته وهو يُفضل سلامته بالدرجة الأولى ، وإن هو تحدث عن الثورة فإنّما يفعل ذلك مجاراة لأخيه فهمي ،وقد دافع ياسين عن موقفه هذا فقال: «أحَسبتني فاقد الوطنية ؟ المسألة أنّي لا أُحب الزياط والعنف ،ولا أجد حرجًا في التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ، قال له أخوه فهمي: وإذا شق التوفيق بينهما فقال ياسين مبتسما ولكن دون تردد:قدمتُ حب السلامة ، نفسي أولا..ألا يستطيع الوطن أن يسعد إلاّ بالتهام حياتي ؟ يفتح الله، أنا لا أفرط في حياتي ،ولكنّي سأحب الوطن مادمتُ حيّا» (11)

لقد اشترك ياسين مرة في المظاهرات ولكنه لم يفعل ذلك عن سابق تخطيط أو عن إرادة بل وجد نفسه وسط الجموع فكان يهتف معهم بحياة سعد زغلول بطريقة أشبه ما تكون بالعفوية ، وبالعكس من وطنيته فقد اتُهم بالعمالة لصالح الانجليز ، فعندما زُرع الجنود في الشوارع وأمام بيتهم في "بين القصرين" ، وفي طريق عودته استوقفه جندي انجليزي فخشي من اعتدائه ، ولكن الجندي لم يكن يطلب سوى عود ثقاب ، فارتاح ياسين لذلك، بل لقد اشترى للجندي علبة كبريت وعاد إلى بيته مزهواً، وقد وصف الكاتب شعور ياسين ،وهو شعور مواطن عربي تعرض للاحتلال ، فصار ينظر للمحتل نظرة إكبار يقول :« ومضى إلى البيت كالمترنّح من الفرح ، أيّ حظ سعيد ظفر به هو!..إنجليزي – لا استرالي ولا هندي– ابتسم له وشكره ، انجليزي ،أي رجل يتمثل في خياله كأنموذج لكمال الجنس

البشري ، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعًا، ولكنّه في قرارة نفسه يحترمه،ويجلّه، حتّى ليخيل إليه كثيرًا أنه من طينة غير طينة البشر» [12] .

ولم تذهب هذه الحادثة البسيطة هكذا ، فقد اعترض شاب أزهري السيد أحمد عبد الجواد وأبناءه في مسجد الحسين عقب صلاة الجمعة ،قاصدا ياسين متهما إياه بالجوسسة لصالح الانجليز، داعيا المواطنين إلى معاقبته،ولولا تدخل أحد المجاهدين ومعرفته بفهمي لكانت الكارثة، لكن وجود فهمي أنقذ الموقف ومكن الجماعة من الانصراف ، فتعرض فهمي في البيت لاستنطاق الأب .

إنّ وعي السيد عبد الجواد وياسين هو وعي فعلي إيجابي، يرصد الواقع ولا يكاد يتجاوز ذلك بالقيام بأمر خطير.

1- 2- السيدة أمينة والوعي السلبي

يتمثل هذا النوع من الوعي أساسا في شخصيتي السيدة أمينة والشيخ متولي فأمينة تمثل الوعي الفعلي البدائي فهي امرأة نمطية لا رأي لها البتة ،فقد سلمت مقاليد أمورها للزوج وقبلت بسلطته « واستغرقها هذا الإحساس حتّى انتفت لديها كل رغبة في المقاومة أو حتّى الغضب أو السخط أو حتّى مُحاولة الفهم » [13] .كانت أمينة بدورها تتمنى خروج الانجليز من مصر نظرا لما تسمع عن أفعالهم ،ولأن فهمي ابنها يكرههم، ولذلك كانت تقول في دعائها: «أسألك الرعاية لسيدي وأبنائي ،وأمي وياسين والناس جميعا، مسلمين ونصارى، وحتّى الانجليز ياربي ، وأن تُخرجهم من ديّارنا إكرامًا لفهمي الذي لا يُحبهم » [14]

وعندما أعلن فهمي أن وكيل الجمعية التشريعية سعد زغلول والعضوين الآخرين عبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا طالبوا

بالسفر إلى لندن سعيا لاستقلال مصر ، شكك ياسين في الحصول على الاستقلال ، أما أمينة فإنها أكثر من ذلك استغربت هذه المطالب وهذه الطريقة قائلة : « يذهبون إلى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخرجوا من مصر ؟ ! ليس هذا من الذوق في شيء .. كيف تزورني في بيتي ،وأنت تُضمر طردي من بيتك » أردفت قائلة : « وكيف يطلبون إخراجهم من ديارنا بعد إقامة طالت هذا الدهر كله؟ ! لقد وُلِدنا وولِدْتم وهم في بلادنا ، فهل من "الإنسانية " أن نتصدى لهم بعد ذلك العمر الطويل من العِشْرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة – وفي بلادهم أيضًا – اخرجوا؟! » [15] وقريب من هذا الموقف وقفت زينب زوجة ياسين مما جعل فهمي يضجر من هذه المواقف المُتخاذلة.

إنّ أمينة في الرواية تمثل نموذجا للمرأة المصرية من الطبقة المتوسطة ، نجد لها أمثلة كثيرة في المجتمع المصري ، ولكنها تمثل النموذج النمطي المستلب لأن هناك من الأسر من تسمح للنساء بالحرية وهذا باعتراف السيد أحمد عبد الجواد نفسه ، ومن هنا نجد مشاركة النساء في المظاهرات التي حدثت عام 1919 ، وقد قال عن ذلك الشاعر أحمد شوقي فيما نقله فهمي لأخيه ياسين :

خرج الغواني يحتججـــــــــــن ورحتُ أرقب جمعهن
فإذا بهـــــــــــن اتخذن من سود الثياب شعـــــــــارهن
فطلـــــــــــعن مثل كواكب يسطعن في وسط الدجـــــنَّه
وأخذن يجتـــــزن الطــريق ودار سعد قَصْــدَهــنَّـــــــه.

1- 3- الشيخ متولي عبد الصمد والوعي السّلبي:

يُمثل الشيخ متولي عبد الصمد شاهد القرن على أوضاع الشارع المصري،وهو ولي يُتبرك به ، ومُساند للطبقة البُرجوازية،فأفكاره مع أفكارها ، وهو كبقية المصريين يكره الانجليز والاستراليين، وقد قدم صوراً عما ارتكبه هؤلاء، كما عاش هو نفسه تجربة اعتداء ، فقد ذكر الشيخ للسيد أحمد عبد الجواد أنّه كان سائرًا قبل يوم في الموسكي ،فاعترض سبيله جنديان استراليان وطالباه بما معه ؛ فنفض الشيخ جيوبه إذْ لم يكن معه شيئ ، وأخرج لهما كوز الذرة الذي كان معه ،فركله أحدهما، وخطف الآخر عمامته ، وحلّ الشال ومزقه ، ورمى به في وجه الشيخ .قال الشيخ : رفعتُ يديّ إلى السّماء وصحتُ: ياجبّار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتي فقال السيد أحمد عبد الجواد : دعوة مُستجابة بإذن الله [16] .

وبالرغم من أنّ الشيخ متولي عبد الصمد ضد الانجليز فإنّه كان يدعو إلى رد الخديوي عباس ، ولذلك فإنّه في لقائه الأول في الرواية مع السيد أحمد عبد الجواد يقول له: « ثم اسأل الله المنان أنْ يُعيد إلينا أفندينا عبّاس مؤيدًا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر.. فيجيبه السيد أحمد : نسأله وليس شيء عليه بكثير » [17] .

فالشيخ متولي ممن مازالوا مرتبطين بالخلافة الإسلامية ، وهو ينتظر نصرًا مجانيا، والسيد أحمد يبدو مستبعدا ذلك ، ولكنّه يتمنى بدوره لو عادت الخلافة ؛ فقد كان المصريون يشعرون بالخيبة بعد فقدان الخلافة الإسلامية ؛يقول محمد جبريل : « بالإضافة إلى العامل الدّيني الذي يُشكل رابطة وثيقة بين مصر ودولة الخلافة ، فإن المصريين ناقشوا عزل الخديوي

عباس في إطار الكرامة الوطنية ، واعتبروا ماحدث مشكلة قومية تتصل برمز الدولة ،لا بمجرد حاكم عزله الأنجليز » [18]

2- الوعي الممكن:

الوعي الممكن هو وعي يشمل الوعي الفعلي المذكور آنفا ، ويزيد عليه ، حيث يحتوي على الرؤية الشمولية التي تجعل الطبقة تقوم بدورها التاريخي ، وينتج عن هذا أن أشكال الوعي لدى طبقة ما ، هي تعبير عن رؤية العالم لدى هذه الطبقة ، وكل عمل أدبي يُجسد ويبلور رؤية العالم لدى هذه الطبقة ، وهذا العمل الأدبي ينقل ذلك التجاوز للوعي الفعلي إلى الوعي الممكن ، وهذا لا يتوفر بطبيعة الحال لدى كل الأدباء ، ذلك أن الصغار منهم (فنيا) يتوقف عند الوعي الفعلي فقط [19]

2-1- فهمي والوعي الممكن

لم تقف الأمور عند حدود الوعي الفعلي ، بل رأى الجيل الثاني (جيل الأبناء) أن يتقدم خُطوة إلى الأمام بوضوح الرؤية التي يمكن أن تغير الوضع ، حدث هذا عندما برز سعد زغلول الذي دعا إلى رفع الحماية عن مصر بل ودعا إلى استقلالها ؛ يقول محمد جبريل في ذلك :« في تعقيب سعد زغلول على محاضرة للمستر برسيفال القاضي الانجليزي في نادي جمعية الاقتصاد السّياسي والإحصاء والتشريع (07 فبراير) ضغط على هذه الحقيقة بكلمات واضحة : في سنة 1914 أعلنت أنجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها الأمة المصرية ،فهي حماية باطلة،لا وجود لها قانونيا،بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها،ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة» [20]

وقد التف الشعب المصري حول هذه الفكرة، فتعانقت بذلك الموهبة الفردية ممثلة في سعد زغلول مع الظرف التاريخي والواقعي والاجتماعي ، وهذا التطابق هو ما يدعوه "جولدمان" بالعبقرية التي ليست موهبة فردية بحتة ، وإنما ترتبط ارتباطا وثيقا ما بين الفرد النابغة وجماعته التي ينتمي إليها في الزمان والمكان ، وهذا ما يُفسِر إخفاق من قام بمثل هذه المحاولات قبل سعد زغلول كأحمد عُرابي مثلا .

لقد آزر الشعب المصري سعد زغلول ، وفي بيت أحمد عبد الجواد كان فهمي الطالب في مدرسة الحقوق مؤمنا تماما بأفكار سعد ، وعاملا نشيطًا في المظاهرات، وفي توزيع المنشورات. ففهمي بذلك لم يكتف بالوعي الفعلي المنتشر في أسرته ، بل شق حُجب المستقبل للمطالبة بشيء آخر، يتعلق باستقلال مصر، ها هو يُملي على أخيه كمال نصًا في الإملاء ، ولكن مضمونه سياسي قال :« أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ،فهي حماية باطلة،لا وجود لها قانونـــيـــا،بل هي ضرورة من ضرورات الحرب تنتهي بنهايتها،ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة» [21] . نجد في هذا النص اعتمادًا كليا على التاريخ والواقع السياسي ، فنجيب محفوظ اعتمد على كلمة سعد زغلول بحرفيتها، وإذن فإن الكاتب ينقل الوقائع كما جرت ، ولكنه يُجسدها من خلال أشخاص في الرّواية فتبدو ماثلة للعيان ، وقد انتخب لأداء الدور النضالي الجهادي شخصية فهمي الطالب بمدرسة الحقوق ، كلية الحقوق بعد ذلك . وبطبيعة الحال فإن الطفل كمال كان يكتب دون أن يعرف البعد السياسي لما يكتب بحكم صغر سنه ، ولكن الأخ الأكبر ياسين استغرب هذا الإملاء الغريب وتساءل عن ذلك ،مما جعل فهمي يطلع أخاه على منشور

سري يقوم بتوزيعه، ويطالب المنشور صراحة باستقلال مصر، ويستمر فهمي في نضاله إلى أن يسقط شهيدا برصاص الغدر البريطاني في مظاهرة احتفالية بإطلاق سراح سعد زغلول .

2 – 2– ثورة 1919

عندما أُلقي القبض على سعد زغلول ورفاقه وتم نفيهم إلى جزيرة مالطة هاج الشعب وماج ، وعبر الناس عن سخطهم كل بطريقته ، وكان الإضراب الشامل بدءا بمدرسة الحقوق ، ورُفعت شعارات تنادي بالاستقلال وتؤيد سعد زغلول ، واعتقل البوليس كثيرا من الطلبة ولكن المظاهرات ظلت متواصلة بل وازدادت انتشاراً ، وكم تمنى فهمي أن يبلي البلاء الحسن فلم يكن راضيا عن دوره فيها.

استمرت المظاهرات أياما« متشابهات في أفراحها وأحزانها،مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا»[22].

وقد عم الإضراب فشمل عمال الترام ،وسائقي السيارات، والكناسين ،وتنوقلت الأخبار بإضراب المحامين والموظفين ، وكان رد فعل السلطة الاستعمارية البريطانية أن نشرت الجنود في الشوارع والساحات ، وبخاصة في القاهرة القديمة ،وقد صور الكاتب ، كيف أن بيت أحمد عبد الجواد في بين القصرين قد عسكر الجنود أمامه، فاضطر إلى عدم الخروج هو وأبناؤه في ذلك اليوم ، حتى أُذن لهم بالخروج في اليوم الموالي ، وقد تمكن الصغير كمال من إقامة علاقة مودة مع الجنود الذين كانوا يتسلون به ، وكانوا يقدمون له الشكولاطه، ويشرب معهم الحليب،وببراءة الصغار كان يطلب منهم أن يفرجوا عن سعد زغلول ، وكان يجيبه ذلك الأنجليزي

بقوله: « سعد باشا نو..» [23]. وقد علق ياسين على أخيه بالقول :« وهكذا فشل أول مُفاوض مصري » [24].

وأمام الإضرابات المستمرة والمظاهرات العارمة ،اضطرت بريطانيا إلى إطلاق الزعيم سعد زغلول هو ورفاقه والسماح لهم بالانتقال إلى باريس لعرض مطالبهم على المؤتمر العالمي للسلام.فكيف استقبل الناس هذا الحدث؟

بالنسبة للسيد أحمد عبد الجواد ورفاقه من أبطال اللهو ليلا ، فقد انتشوا بهذا الخبر السعيد ولم تخل جلستهم الخمرية من التطرق إليه ولكنه تطرق السكارى ، لقد قال إبراهيم الفار وهو في حالة سكر :« أبحر الإسكندرية من سعد اليوم إلى باريس ، وكان يقصد أن يقول : أبحر سعد من الإسكندرية اليوم إلى باريس ، وانفجر أصحابه ضاحكين ، وعُدت هذه نادرة من نوادر الخمر اللسانية ، وابتدروه قائلين " وسيمكث في المفاوضة ريثما يسترد صحته ، ثم يُبحر إلى الدعوة تلبية للندن التي تلقاها من " أو " وسينال رامزاي مكدونالد من الاستقلال على الموافقة " و"سيعود حاملا مصر إلى الاستقلال » [25].

وإذا كان هذا موقف هذه الشلة فإن موقف الطلبة كان باستمرار المظاهرات هذه المرة فرحا وابتهاجا، غير أن الجيش البريطاني قابلها بإطلاق الرصاص ، وراح ضحيتها في من ذهب فهمي ، إذ أتى النعي إلى والده السيد أحمد عبد الجواد وهو في الدكان ؛ أتاه ثلاثة فِتْية يبدو عليهم الجد ، عرف واحدا منهم ، كان قد أنقذهم في حادثة المسجد عندما هاجمهم الأزهري متهما ياسين بالجوسسة لصالح الانجليز.

3 – ظهور الأحزاب السياسية أو مرحلة الانتماء الأيديولوجي

صورت ثلاثية نجيب محفوظ الأوضاع الاجتماعية المتأثرة بالوضع السياسي والاقتصادي بسبب الحرب العالمية الأولى ، وقد أشارت الرواية منذ البدء إلى ذلك ؛ فقد اشتكى السيد أحمد عبد الجواد سوء الوضع ،كما أشار إلى وضعية اللاأمن بسبب وجود الاستراليين في الشوارع واعتدائهم على السكان ،وسلبهم حاجياتهم، الأمر الذي منع السيد أحمد عبد الجواد من السهر في الأزبكية،وكذا الشأن بالنسبة لابنه ياسين ، وعندما وضعت الحرب العالمية أوزارها لم يعد لفرض الحماية على مصر من مبرر ، وظهر سعد زغلول مُطالبا برفع الحماية ،بل والاستقلال، وقد اجتمعت مختلف الشرائح والفئات حول سعد زغلول الذي جمع هو ورفاقه توكيلا من الشعب ، وهكذا تشكل الوفد المصري الذي من مهمته تمثيل الشعب المصري ، والتف حول الوفد فئات مختلفة أبرزهم فهمي في الرواية الذي يذهب ضحية رصاص غادر، عقب إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه، ولم يعد حزب الوفد الوحيد في الساحة السياسية بل برزت أحزاب سياسية أخرى يُمثلها في الرّواية جيل الأحفاد ؛ أحفاد السيد أحمد عبد الجواد على النحو الآتي :

3 – 1– حزب الوفد: وهو الحزب القومي الذي يجمع بين صفوفه مختلف الاتجاهات، وهو حزب الأغلبية ، ولا نكاد نجد في الرواية من يعارضه معارضة بيّنة،تشكل هذا الحزب في مصر عام 1918 ومن أبرز زعمائه سعد زغلول وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي ،وأحمد لطفي السيد ، وقد أخذوا توكيلا من الشعب المصري لتمثيله ، وأطلقوا على أنفسهم "الوفد المصري" وهكذا تشكل هذا الحزب القومي الذي بقي يتولى

الوزارة معظم الأوقات حتى ثورة 1952 ، ومن هذا الحزب انبثقت أحزاب أخرى[26].

3 – 2 – أحمد والفكر الاشتراكي

يمثل الاتجاه اليساري في الرواية ، وهو طالب في الحقوق ،رفض أن يقبل بوظيفة حكومية قبل أن يتخرج من الجامعة مخالفا رأي أمّه البرجوازية الفكر خديجة وأبيه أيضا ، وقرر الالتحاق بالعمل الصحفي رغم أن هذه المهنة معيبة ومشينة في نظر الطبقة البرجوازية ، فمهمة الجورنالجي غير جديرة بالاحترام، ولكن أحمد كان مُصرا عليها، وقد حدث نضج فكري لديه ، ولاحظت أسرته توقفه عن الصلاة،وكانت له ميول لمساعدة الآخرين ، فقد بلّغ لوالديه وضعية جارهم في الدور الثاني راجيا تأجيل دفع الكراء إلى الشهر المقبل ، وردت عليه أمه بقسوة :« إننا لا نُشاركه في شقته ،فلا يجوز له أن يُشاركنا في رزقنا، ولو تساهلنا معه لتبعه ساكن الدور الأول »ولكن الولد ردّ على أمه « إذا تساهلنا مع رجل مزنوق فلن نجوع » [27] ، وكان لأحمد أخ ينتمي إلى التيار الإسلامي هو عبد المنعم الذي علّق على أخيه قائـــلا:« إنّه غير مُقتنع بأن من حق بعض النّاس أن يملكوا بيوتا » [28]، وتطور النقاش بين الإخوة إلى دعوة عبد المنعم أخاه إلى الصلاة ،وقال موجها الكلام لأمه : « اسمعي ، هذا الشاب لا دين له ، هذا ما بت أعتقده »[29].

إنّ لأحمد أفكارا مختلفة عن أفكار أخيه ، فهو غير مستعجل في الزواج ، وغير قابل بوظيفة حكومية ، رافضا الوساطة في ذلك، مفضلا الالتحاق بالعمل في جريدة "الإنسان الجديد" التي يديرها عدلي كريم ،والذي يقصد به نجيب محفوظ سلامة موسى أحد أقطاب الفكر الماركسي في مصر

كما صرح بذلك نجيب محفوظ[30]، وفي مجلة الإنسان الجديد يتعرف إلى الآنسة سوسن حماد المُشبعة بالأفكار الماركسية ، والتي توجه نقدا لخاله كمال ،فتصفه بالسلبية في مقالاته، وكذا الشأن بالنسبة لصديقه رياض قلدس ، كما تنتقد سوسن الاشتراكية الواردة في الإسلام فتقول : :« قد يكون في الإسلام اشتراكية ، ولكنها اشتراكية خيالية، كالتي بشّر بها توماس مور ولويس بلان وسان سيمو، إنه يبحث عن حل للظلم الاجتماعي في ضمير الإنسان ، بينما الحل موجود في تطور المجتمع نفسه ، إنّه لا ينظر إلى طبقات المجتمع ، ولكن إلى أفراده، وليس فيه بطبيعة الحال أية فكرة عن الاشتراكية العلمية ، وفضلا عن هذا كله فتعاليم الإسلام تستند إلى ميتافيزيقا أُسطورية تلعب فيها الملائكة دورًا خطيرا»[31].

إن مثل هذه الأفكار لم تكن موجودة من قبل لدى جيل أحمد عبد الجواد وأصدقائه ، ولم تكن موجودة لدى جيل الأبناء ، وقد ظهرت فقط مع جيل الأحفاد ، وبرزت في الجزء الثالث من الثلاثية "السكرية" ، وقد جسده أحمد وسوسن «وكأن نجيب محفوظ يريد أن يُعرفنا أن الاتجاه الشيوعي في فترة مابين الحربين لم يكن قاصرا فقط على الرجال ، ولكن هناك كثير من النساء أمثال سوسن حماد اللاتي تشبعن بهذه الأفكار»[32].

ولكن محمد علي البدوي يرى أن أحمد شوكت يعد امتدادا لشخصية كمال عبد الجواد في قصر الشوق التي هي في الأصل شخصية نجيب محفوظ نفسه ودليله أنّ كمال يشعر بميل خاص نحو ابن أخته أحمد واتجاهه اليساري[33].

والحقيقة أن هناك بالفعل تعاطفا من كمال نحو ابن أخته ، وهناك تشابه من حيث العمل الصحفي ، لكننا لا نستطيع اعتبار أحمد امتدادا لكمال

لأن كمال لم يختف بل بقي موجودا في السكرية إلى آخر الرواية ، وهناك فرق واضح بين الشخصيتين ، فكمال الذي يمثل جيل الأبناء يُجسد جيل الأزمة الجيل الذي بقي في منتصف الطريق ، لم تتضح له الرؤية بعد ، ولم يعرف ماذا يفعل ، وهو جيل فئة من المثقفين في ذلك الوقت ، أما أحمد فهو مثل أخيه عبد المُنعم اتضحت لهم الرؤية ،فقطعوا خطوات جريئة وعملاقة انبهر بها كمال نفسه .

ولعل توظيف شخصية سوسن حداد باعتبارها معتنقة الشيوعية بل وملهمة لأحمد يعود أساسا لانتمائها الطبقي العُمالي ، عكس انتماء أحمد، كما أن تواجد سوسن بهذه المواصفات يعد بديلا للفتاة البرجوازية علوية صبري الذي فاتحها أحمد في أمر الزواج فصارحته بأنها لن تعمل بعد التخرج ، وأنها تشترط مبلغ خمسين جنيها شهريا لسد مصاريفها ، وهو المبلغ الذي يفوق مرتبه بعد التخرج والعمل بخمسة أضعاف ، وهذا ما أثار سخط أحمد وزاده اقتناعا بزيف الطبقة الارستقراطية ، ولذلك انجذب كلية نحو هذه الفتاة، وتطور الأمر إلى تحقق الزواج ، غير أن مصير أحمد كان الاعتقال ، يستوي في ذلك تماما مع أخيه ذي الانتماء الإسلامي ، ويُزج به في السجن مع من يُمارسون السرقة، وقد تم ترحيل الأخوين المعتقلين إلى معتقل الطور ، وعن ذلك تساءل رياض قلدس صاحب كمال « الذي يعبد الله والذي لا يعبده » فرد عليه كمال: «يجب أن تعبد الحكومة أولا كي تعيش مُطمئنًا »[34].

3 – 3 – عبد المنعم والاتجاه الإسلامي:

الإخوان المسلمون هم جزء من المنظومة السياسية والاجتماعية التي اتخذت من الدين مُنْطلقًا لها، وقد صورت ثلاثية نجيب محفوظ في نماذج

خاصة كيفية لقاء هذه الجماعات ، وخير من يُجسد ذلك عبد المنعم إبراهيم شوكت حفيد السيد أحمد عبد الجواد، فبعد أن شهد الأخوان أحمد وعبد المنعم جنازة الملك فؤاد اتجها إلى قهوة محمد عبده، وهناك « وفي الحجرة المواجهة للنافورة رأى أحمد شيْخًا مرسل اللحية حاد البصر، يتوسط جمعا من الشبان يتطلّعون إليه في اهتمام ،فتوقف وهو يقول لأخيه : «الشيخ علي المنوفي صديقك ، أخرجت الأرض أثقالها،ينبغي أن أتركك هنا»[35].

كان أحمد اشتراكي النزعة ،وكان لا يألف الشيخ المنوفي على عكس عبد المنعم الذي يُقبل على الشيخ ناظر مدرسة الحسين الأولية، ويشرح الشيخ المنوفي بصوت عال بعض القضايا المتعلقة بالإيمان، وحين يقول له أحدهم : « ولكن أليس من الحكمة أن نتجنب السياسة ؟ يجيبه الشيخ بقوله : الدين هو العقيدة والشريعة والسياسة ، إن الله أرحم من أن يترك أخطر الأمور الإنسانية دون تشريع وتوجيه، وهذا في الواقع هو درسنا الليلة » .(36)

وعندما يعود عبد المنعم إلى البيت يجد فتاته في السلم فيُشبعها لثمًا وتقبيلا،ثم يندم بعدئذ عما فعل، وفي مرة لاحقة يقرر ترك الفتاة ،ويفاتح والديه في أمر الزواج،تاركا لهما حرية اختيار الزوجة، فيتم تزويجه بنعيمة ابنة عمه وابنة خالته،رغم كونه طالبًا لم يتخرج بعد، وفي الجامعة يتم التساؤل عن الإخوان المسلمين فيجيب أحد الطلبة :« جمعية دينية تهدف إلى إحياء الإسلام علما وعملا ،ألم تسمع بشُعبها التي بدأت تتكون في الأحياء؟ وهنا يتدخل عبد المنعم بصوت قوي :لسنا جمعية للتعليم والتهذيب فحسب، ولكننا نحاول فهم الإسلام كما خلقه الله ، دينا ودنيا ،وشريعة ونظام حكم » .(37)

هكذا يُوضح عبد المنعم أهداف ومرامي الإخوان المسلمين ، فالأمر عام وشامل يتعلق بالدين والدنيا، ويتعلق بنظام الحكم، ورغم بعض الصفات التي يتصف بها عبد المنعم نموذج الرجل الإخواني ،فإن الكاتب يرصد هذه الجماعة أو هذه الجمعية في طور النشوء فعبد المنعم ليس متعصبا كثيرًا ،وهو يتصف بالصفات الآتية :

– الجرأة في طرح أفكاره، حتّى وإن جرحت الآخرين، وقد لاحظت عليه ذلك حماته الأولى، خالته عائشة فقالت : « هذا الشاب طيب ، صريح ، ولكنه لا يبالي أين يقع كلامه من القلوب الجريحة»[38]وكذا كان موقفه من عشيقته عندما قرر تركها وبصفة قطعية، مُعتبرًا أن ما يقومان به لا يجوز، بدليل أنه لا يمكن الجهر به، ومادام الأمر كذلك فينبغي الإقلاع عنه فورًا.

– الرغبة في الزواج، فقد طلب من والديه الزواج فورا، وعندما توفيت زوجته ، طلب إعادة الزواج، غير عابئ بما تقوله الأم من أن جده توفي حديثا.

– إطالة اللحية شأنه في ذلك شأن أصدقائه والذين دعاهم إلى حفلة الزفاف

– الاعتماد أثناء الحديث والنقاش على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ،مما جعل جيل الآباء والأبناء يتعاطف مع عبد المنعم خلافا لمن هم في سنه من جيل الأحفاد، لا يلقى منهم معارضة، ولكن الأمر في النهاية يؤول بهذه الشخصية إلى المعتقل شأنه في ذلك شأن أخيه أحمد ذي الاتجاه الشيوعي.

والخلاصة أنّ نجيب محفوظ قدّم من خلال الثلاثية مسحا اجتماعيا سياسيا بطريقة فنية، من خلال أسرة السيد أحمد عبد الجواد ، ونمو هذه الأسرة وتطور شخوصها .

لقد انطلقت الثلاثية برواية بين القصرين ، التي صورت جوانب من الحماية البريطانية على مصر ، وصورت سيطرة القيم التقليدية من خلال السيطرة المطلقة للسيد أحمد عبد الجواد، ولكن تلك القيم خفت فيما بعد وروح التحرر تعمقت أكثر في الجزء الثاني من الثلاثية قصر الشوق ، كما تغيرت كثير من مظاهر الحياة ، فقد استبدلت المصابيح الغازية بمصابيح الكهرباء ، وانتشرت السيارات .أما في الجزء الثالث "السكرية" ، فإننا نجد قيما بديلة وجيلا جديدا يخلف الجيل القديم ويتميز بالانتماء الأيديولوجي والسياسي، وجدير بالإشارة أنّ نجيب محفوظ لم يكن في الثلاثية واقعيا تسجيليا فقط ، فقد تجاوز ذلك إلى النقد والتحليل الذي لا يخلو من كشف الشخوص وبالتالي كشف المجتمع من الداخل بطريقة فنية.

الهـــوامـــش و المراجـــع

1 – يمكن تصنيف مراحل تطور الفكر الاجتماعي عند نجيب محفوظ وفــق المراحــل الآتية :

أ– المرحلة التاريخية الرومنسية، وقد كتب في هذه المرحلة :عبث الأقدار– رادوبيس– كفاح طيبة.

ب– المرحلة الواقعية الاجتماعية أو النقدية ،وفيها كتب : القــاهرة الجديــدة – خــان الخليلي– زقاق المدق– بداية ونهاية.

ج– المرحلة الواقعية التسجيلية ، وفيها كتب الثلاثية.

د– المرحلة الواقعية الفلسفية، وتبدأ برواية أولاد حارتنا وتليها أعمال أخرى.ينظر فــي هذا الصدد :محمد علي البدوي :علم اجتماع الأدب، النظرية والمنهج والموضــوع ،دار المعرفة الجامعية،2002 ص.ص 305–315.

2 – محمد حسن عبد الله: الواقعية في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب،مصر، 1991.ص515

3 – صالح سليمان عبد العظيم:سوسيولوجيا الرواية السياسية،يوسف القعيد نموذجا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر،1988،ص 57

4– نجيب محفوظ : بين القصرين ،مكتبة مصر، القاهرة ،د.ت. ص 15.

5 – نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 15.

6http://www.coptchistory.org/new_page174htm

7– نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 315.

8– نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 315.

9– نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 398.

10– نجيب محفوظ : قصر الشوق ، مكتبة مصر، القاهرة ،د.ت. ص ص 385.

11– نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 459.

12- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 373.

13- محمد جبريل :مصر في قصص كتابها المعاصرين، الجزء الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مصر، ص 1180.

14- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 37.

15- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 309.

16-نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 41.

17- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 40.

18- محمد جبريل :مصر في قصص كتابها المعاصرين، الجزء الأول،ص 714.

19- شحيد جمال : في البنيوية التكوينية ، دراسة في منهج لوسيان قولدمان ، دار ابن رشد للطباعة والنشر ، بيروت ، 1982 ، ص 38-41

20- محمد جبريل :مصر في قصص كتابها المعاصرين، الجزء الأول،ص 1331 نقلا عن جريدة الأهرام بتاريخ 1969/03/11.

21- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 327.

22- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 342.

23- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 381وص 414.

24- نجيب محفوظ : بين القصرين ، ص 414 .

25- نجيب محفوظ : قصر الشوق ، ص 07.

26- http://www.saaid/net/ferag/mthahb/46htm

27- نجيب محفوظ : السكرية ، ص 76.

28- نجيب محفوظ : السكرية ، ص 77.

29- نجيب محفوظ : السكرية ، ص 77.

30- محمد علي البدوي :علم اجتماع الأدب،.ص 372.

31- نجيب محفوظ : السكرية ، ص 261.

32- محمد علي البدوي :علم اجتماع الأدب،ص 371.

33- محمد علي البدوي :علم اجتماع الأدب ص 374.

34- نجيب محفوظ: السكرية، ص 265.

35- نجيب محفوظ: السكرية، ص 82 .

36- نجيب محفوظ: السكرية، ص 84.

37- نجيب محفوظ: السكرية، ص 84.

38- نجيب محفوظ: السكرية، ص 126.